مقدمة الطبعة الثانية

بقلم

أحمد شفيق

طبعت هذه الترجمة أول مرة سنة ١٨٩٢م، وكان المؤلف عند تأليف هذه الرسالة بالفرنسية سنة ١٨٩١م (أحمد شفيق بك السكرتير الخاص لسعادة ناظر الخارجية) والمترجم حضرة (أحمد زكي بك مترجم مجلس النظار).

وقد وردت بحاشية الكتاب تفسيرات لبعض ما ورد في صلبه وتعليقات عليه، معظمها بقلم المترجم، وبعضها مقيد بزمنه، وقد أبقيتُ عليها هنا في هذه الطبعة؛ حتى يعلم القارئ اتجاه التأليف والترجمة في ذلك الحين، ولفائدة بعض هذه التعليقات من الوجهة التاريخية.

وقد دعاني إلى إعادة طبع هذه الترجمة، نفادها من زمن بعيد، وورود طلبات من الكثيرين بإعادة طبعها، ولأن هذه المسألة «الرق في الإسلام» لم يتناولها البحث -فيما أعلم- طوال هذه المدة مع الحاجة إليها من الوجهات الدينية والاجتماعية والسياسية.

وتصدر هذه الطبعة بعد أن تغيرت الحالة من وجهة الاسترقاق، فعند تأليفها كان الرق منتشرًا في السودان وفي مواضع أخرى، وكان هناك قلم خاص في القاهرة لتحرير الرقيق، وقد أصبح الآن غير موجود لانتهاء عهد الاسترقاق.

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة المترجم

بقلم/ أحمد زكي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحبه وأهله ونسله والمقتدين بسُنته من ذوي مِلته في قوله وفعله.

وبعدُ، فإن الكردينال لافيجري قد طبق الأرض ذكره، واشتهر في الخافقين أمره، وجرت على لسان البرق خطاباته، واستفاضت في الجرائد والصحائف كتاباته؛ لأنه تصدى -كما يقول- للأخذ بناصر الأرقاء؛ ولكنه تطرف وتغالى، فقادته الغاية العمياء إلى الطعن على الديانة الحنيفية الغراء، فعدل عن واجب الاعتدال في جادة الجدال، ولذلك انبرى للرد عليه كثيرون من حلفاء هذا الدين المبين، وأتوه بهذا اليقين، ولكن الذي فاز بقصب السبق في هذا المضمار، وحاز الفضل والفخار، هو حضرة المحقق البارع أحمد بك شفيق، كاتم أسرار سعادة ناظر الخارجية المصرية؛ فإنه أجاد في الكلام على الرق عند جميع الأمم، وفي جميع الأديان، ثم انتقل من هذه التوطئة إلى بيان الاسترقاق في الإسلام، ليظهر فضل الدين المحمدي في هذا المقام، فينجلي الصبح لذي عينين؛ إذ بضدها تتميز الأشياء، وحينئذ يحكم العاقل الخبير، والناقد البصير، بأن جناب الكردينال جنح إلى الاعتداء بدلًا من الاعتدال. ولما أتم المؤلف هذه الرسالة

خطب بها على الجمعية الجغرافية الخديوية في جلسات متوالية، ونالت من الإعجاب والاستحسان ما نالت، ولذلك طلب إليَّ كثير من الكبراء وأهل الفضل أن أنقلها إلى اللغة العربية ليعم نفعها، وتكمل فائدتها، فرجوت حضرة مؤلفها أن يجعل لي قسطًا من الفضل في هذا العمل؛ فتفضل بالإجابة، فاستخرت الله في هذه الخدمة الوطنية؛ غيرة على هذا الدين القويم، وشمَّرت عن ساعد الاجتهاد، فعرَّبتها بغاية العناية، حتى جاءت بحمد الله تعالى مثالًا للترجمة التي يحافظ فيها على المعنى تمام المحافظة مع مراعاة القواعد الإنشائية العربية والأساليب القولية الكلامية التي تجعلها أهلًا للقبول عند الناطقين بالضاد في جميع البلاد، ثم حليتها بفوائد علمية وحواش تاريخية جغرافية؛ لكي يكون المطلع عليها في غنى عن الرجوع إلى غيرها مما يدخل في دائرة بحثها، وقد راجعت الأصول وأمهات الكتب، فنقلت منها الأحاديث الشريفة بشرح بعضها، وكذلك فعلت ببعض الآيات القرآنية الكريمة، وأكملت القصص والحوادث التاريخية من مصادرها المعول عليها الموثوق بها، وفوق ذلك، فقد لاحظت بنفسي طبع هذه الرسالة على هذا الشكل الفائق الأنيق، والأسلوب الشائق الرقيق، فمزجت بين الحروف المختلفة المقدار كلما رأيت ذلك واجبًا لتنبيه القراء، واستلفات الأنظار، وفصلت الفقرات عن بعضها فصلًا يسهل به التمييز بين المواضيع، جاريًا في ذلك على النمط الذي اصطلح عليه أهل أوربا من إتقان الطبع وإحكام الوضع.

obeikan.com

فاتحة الكتاب

اتفق لي في أول يوليو سنة ١٨٨٨م أن حضرتُ بكنيسة[١] سان سولبيس[٢] في مدينة باريس، وسمعت نيافة[٣] ----------=

(١) الكنيسة ليس لها اشتقاق في اللغة، قيل: إنها لفظة عربية. وقيل: إنها معرَّب كنشت. وقيل: إن للعرب لفظة أخذوها عن الروم، وهي: فليس أو قليس، وإنها كنيسة بناها أبرهة على باب صنعاء على ما قاله ياقوت. قالوا: ومن المحتمل أن كنيسة تحريف لفظ فليس. أقول: ويشهد لهذا الاحتمال أن اسمها بالتركية كليسة، وربما كانت منها القلاية التي هي صومعة الراهب عند الأقباط، وأنها في الفرنساوية إجليز، وفي التليانية كييزا، وهي عند الإفرنج مشتقة من لفظة يونانية (إكليزيا) معناها الاجتماع، والكنيسة في أيامنا هذه عَلَم على متعبَّد النصارى، والكنيس على متعبد اليهود. اهـ مترجم.

(٢) هي من أشهر العمائر بباريس في خط سان جرمان، مضى عليها زمان طويل حتى أمكن إتمامها؛ فإنها كانت موجودة في القرن الثاني عشر، ثم دعت الحال لتوسيعها في القرن السادس عشر، ثم اضطر القوم لإعادة بنائها كله، فوضع الحجر الأول منها في سنة ١٦٤٦؛ ولكنهم رأوا تغيير التصميم حتى تكون فسيحة، ولم تتم بنايتها إلا في سنة ١٧٤٩ بواسطة اجتهاد القسوس، وتبرع أهل الخير والمال الكثير الذي تحصل من يانصيب (لوترية) فتحوه لأجل هذا الغرض، وفي أيام الثورة الفرنساوية أطلق عليها اسم «هيكل الانتصار» وقد أُولمتْ فيها وليمة عظيمة للجنرال بونابرت بعد عودته من مصر، وهى الآن أكبر محل لتخريج القسس وتعليم الرهبان. اهـ مترجم.

(٣) **نيافة:** تعريب اصطلح عليه العيسويون للفظة Eminence وهو لقب افتخاري، خاص بالكرادلة (جمع كردينال) منحهم إياه البابا أوربانوس الثامن بمرسوم أي منشور أي تقليد (دكريتو) أصدره في ١٠ يناير سنة ١٦٣٠، وفي نيافة معنى الارتفاع والارتقاء يقال: جبل عالي المناف؛ أي المرتقى، وذلك موافق لمعنى اللغة الإفرنجية. اهـ مترجم.

= الكردينال[١] لافيجري[٢] وهو يخطب بها على أهل تلك المدينة ويصف فظائع النخاسة بإفريقيا الوسطى، ويسوق لهم الحديث على الاسترقاق، وبساطته في البلاد الإسلامية، ولم يكتفِ نيافته بإدانة المتدينين بالدين المحمدي بهذا الأمر؛ بل نسب قبائحه إلى نصوص الشريعة التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام.

ولما كانت هذه التهم لا أساس لها، ولا برهان ينهض عليها، وقد بثها في لوندرة وبروسل[٣] دعاني حب الحقيقة إلى البحث عن هذا الموضوع في الكتب الدينية المعتبرة لدينا، المعول عليها عندنا، فأتاح لي الجد -بفضله تعالى- إقامة

---

(١) الكردينال معرب، وهو أحد السبعين حبرًا الذين تتألف منهم الدائرة المقدسة التي تجتمع لانتخاب البابا، وفي أثناء اجتماعهم لا يكون لهم أدنى علاقة أو أقل مواصلة مع الخارج، وكان مبدأ هذه العادة في سنة ١٢٧٠؛ فإن البابا إكليمنضس الرابع، توفي سنة ١٢٦٨ ولم يتفق الكرادلة على تعيين خلفه إلى سنة ١٢٧٠، حتى تعبت الأمة من هذا التواني، فحجزتهم كلهم في محل اجتماعهم إلى أن انتخبوا واحدًا منهم للجلوس على كرسي البابوية. اهـ مترجم.

(٢) أمَّا الكردينال لافيجري فنكتفي بضبط اسمه الآن؛ فقد رأيت كثيرًا من الناس ينطقون به على كيفيات مختلفة أغلبها بعيد عن الصحة؛ فهو لام بعدها ألف، ثم فاء فارسية قريبة المخرج من الواو، بعدها ياء، ثم جيم فارسية ساكنة، فراء مكسورة، بعدها ياء ساكنة. وسنأتي على ترجمة حاله في آخر الرسالة. اهـ مترجم.

(٣) جاء في رسالة مدرجة بجريدة الإنديبندنس بلج (الاستقلال البلجيكي) الصادرة في بروسل بتاريخ ١٦ أغسطس سنة ١٨٨٨م كلام على خطابة ألقاها الكردينال لافيجري، قال صاحبه: «إنَّ الخطيب لم يقدر على الامتناع عن المجاهرة بأن المسلمين يرون أن اصطياد الرقيق حق لهم يكاد يكون واجبًا عليهم، وهو حق لهم لأنهم يعتقدون ويقولون بأن الأسودَ ليس من العائلة البشرية، وأنه متوسط بين الإنسان والحيوان؛ بل إن بعضهم يرونه أدنى من الحيوان مقامًا». مؤلف.

الحجة وإيراد الدليل على أن القرآن الشريف فوق كونه لم يعتبر الرقيق بمنزلة الحيوان، فقد جاء بكثير من النصوص والوصايا التي تفرض على المسلمين أن يحسنوا رعايته والعناية بشأنه، وأن تكون معاملتهم له بالحسنى والمرحمة، وهو أمر يجهله إلى الآن عامة الأوربيين، حتى القاطنين منهم بديار المشرق، اللّٰهم إلا ما ندر، فإنه بديه أن مجرد السكنى في بلد من البلاد لا توقف الإنسان تمام الإيقاف على كنه شرائعها، بل يعوزه أيضًا أن يكون عارفًا حق المعرفة بلغة أهلها، ولا ريب في أن علماء المشرقيات المتوفرة فيهم هذه الصفات، هم أقل من القليل.

وأتعشم في وجه الله الكريم أن يجعل نتيجة بحثي تُميط اللثام عن حقيقة هذه المسألة الخطيرة التي كثر اهتمام الحكومات والأفراد بها في هذه الأيام.

وقبل الخوص في هذا الموضوع ينبغي لنا أن نأتي بالإيجاز وبوجه العموم على ذكر الاسترقاق عند الأمم:

الرق هو حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكًا للغير(١).

قالوا: إنَّ الاسترقاق ظهر منذ كان الاجتماع الإنساني، وهو قول في غاية الإصابة والسداد؛ فإنه ظهر حقيقة عندما وقعت الاجتماعات البشرية الأولى، أيام كان حجاب الجهالة مسدولًا على عالم الفطرة، والذي أوجب حصول هذا الفعل هو أمر يسهل بسطه وإيراده؛ وذلك أنه لما كان العمل من أصعب

(١) هذا هو حده عند الإفرنج، وقال في التعريفات: الرق في اللغة الضعف، ومنه رقة القلب، وفي عُرف الفقهاء عبارة عن عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر، أما إنه عجز فلأنه لا تملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما، وأما أنه حكمي فلأن العبد قد يكون أقوى في الأعمال من الحر حسًّا. اهـ مترجم.

الضرورات وأشقاها أخذ الإنسان في البحث عما يخلصه من عنائه ومكابدته، فإذا بطلبته بين يديه عند الهيئة الاجتماعية، فإن القوي ألزم الضعيف بالاشتغال، ومن ذلك نشأ الاسترقاق.

ثم جاءت الحروب، وتولدت الأطماع، فبثت الاسترقاق في جميع أجزاء العالم، وعند معظم الأمم، وصار الناس لا يقتلون العدو؛ بل يبقون عليه ليعمل لهم. هذا، واعلم أن طبيعة الأقاليم -وهي من أقوى العوامل في إنماء الجمعيات البشرية- كان لها تأثير عظيم في زيادة الاسترقاق واتساع نطاقه، حتى أنه ما لبث أن بلغ عدد الأمم التي على البساطة والفطرة في جميع بلاد المشرق مبلغًا عظيمًا، ودرجة قاصية، وانتشارًا زائدًا، فإن ثمن الرقيق كان زهيدًا، وعمله مفيدًا بالنظر إلى ما صارت إليه الصناعة والتجارة من التقدم والأهمية، ولقد كان الحال على خلاف هذا المنوال عند أمم الشمال، فإن تغذية الرقيق عندهم كانت تكلفهم مصرفًا جسيمًا، ولم يكن لعمله كبير جدوى ولا فائدة، فلهذا كان الاسترقاق في بلاد الشمال منذ العصور الخوالي أقل انتشارًا منه في جهات الجنوب من المعمورة، وهذا يدلنا على أن الاسترقاق هو من الأمور الاقتصادية التدبيرية المترتبة على العمل والاشتغال.

ولنبحث الآن في حالة الرقيق عند الأمم المختلفة واحدة واحدة.